



لا يمضي وقت طويل في كل تجربة لمعارك تحرير واستقلال في بلد ما، حتى ينتهي الأمر بتسمية "الأحرار" أو "المجاهدين" أو "الثوار"، فصائل متناحرة. تكاد تتطابق الأمثلة في هذا وتكرر.

ما الذي يفضي إلى هذه النهاية المأساوية، من الوضع النضالي إلى النهاية الميليشاوية، من ابتهاج من الشعوب بالمناضلين الأحرار إلى الانزعاج من حواجزهم وتحكماتهم والفوضى التي تؤول معها إليها الأوضاع، ثم القصف والدمار اللذين يلزمان تلك النهايات؟!

ثمة أسباب داخلية وخارجية لمثل هذا المصير البغيض، يبدأ من بنية الشعوب ذاتها التي تنبت تلك الفصائل منها، وينتهي إلى مصائر تسير وفق سيناريوهات مرسومة سلفاً..

في الوارد الأكثر الأهمية على هذه التجارب تكمن إرادة خارجية من الراعين والممولين تتأبى على تلك الفصائل اتخاذ مواقف مستقلة، وفي القلب يأي النفوذ العالمي الذي يحكم خطوات الداعمين والرعاة نأياً بها عن الوصول إلى نهاية سعيدة.

لا تبدي الدول الكبرى انزعاجاً كبيراً حينما تجد أن بعض تلك الفصائل قد وجدت بغيتها في دولة إقليمية ترعى نشأتها وتطورها، لا، بل بالعكس، فإن رعاية تلك الفصائل - أو بعضها - يجد تشجيعاً من الدول الكبرى؛ إذ لا يمكن لواضعى السيناريوهات الاطمئنان إلى فصيل لا يحظى برعاية إقليمية يمكنها أن تضبط "انفعالاته" و"نضالاته" .. ويقع على عاتق هذه الدولة الإقليمية أو تلك مهمة الأخذ بخطام هذا الفصيل أو ذاك لئلا يشرد بعيداً عن معادلة الصراع المحكومة.

دعونا نبدأ القصة من أولها:

ظلمة تقع على شعب ما، يجد فيه فصيل أو جماعة حاجة ملحة إلى دفع هذا الضرر عبر العمل المسلح، أو قد يفرض عليه فرضاً (في الحالتين الأفغانية، أو العراقية، وجدت الفصائل الإسلامية تحديداً نفسها أو تشكلت في مناخ احتلالي واضح، تُفهم فيه المقاومة من "أجل التحرير"، في الحالة السورية كانت المقاومة من أجل حماية أرواح وأعراض الثائرين والمدنيين على حد سواء) .. أهداف نبيلة فيما يبدو، لكنها تصطدم بواقع أليم؛ فليس العمل المسلح هو حمل بندقية، بل ضمان استمرار تدفق أموال ودعم لوجيستي وتهريب وأعمال استخبارية لا يقدر عليها فصيل بمفرده، وهنا يجد الفصيل بغيته، دولة إقليمية عتيدة بوسعها أن تخرجه من محنته تلك وتتوفر له سبل الدعم والحركة والأهم من هذا القدرة على الاستمرار لمدد طويلة تستنزف

للفصيل أجندها، وللدولة أجندها. يظنهما الأول متطابقين، وهم ليستا كذلك بكل تأكيد.. يبدأ من هنا مسلسل التنازل، نعم، لا يمكن أن يكون التنازل إلا من الجانب الرخو في المعادلة.. الفصيل يجد نفسه شيئاً فشيئاً أداة أكثر منه حركة تحريرية أو نضالية أو حتى جهادية.

حزمة من الضغوطات تذهب بالفصيل هذا إلى خانة الأداة أو العميل، حزمة متنوعة: إغراق على القادة، تأمين حياة في كثير من الأحيان، تسليح مبرمج، وذخيرة مؤقتة بحيث تبقى الحاجة دوماً للداعم..

النقطة الأخطر في هذه الضغوطات هو التباطؤ حينما يشتغل البلاء على هذا الفصيل، إلى الحد الذي يوشك فيه على الهزيمة ويصبح صيداً سهلاً للابتزاز.. (في ليبيا مثلاً: تركت الفصائل تئن حين قارب القذافي على الزحف على بنغازي وانهيار الثورة تماماً، حينها تدخل الحلف الأطلسي بقوته وشروطه معاً..).

في سوريا: صرفت صواريخ التاو بطريقة عجيبة، حيث يجري تصوير القصف بها بكاميرا خاصة وتسليم المقطع للوسيط ومن للجيش الأمريكي الذي يعتمد من بعد منح الفصيل بديلاً عن القذيفة المقصوفة، وبغير هذه الطريقة لا يتم تسليم مقنوف جديد للفصيل في أوج حاجته إليه.. هذا كان يعني أنه لا يمكن تخزين الصواريخ لوقت آخر يتكون لدى الفصيل فيها حصيلة تمنحه شيئاً من الاستقلال النسبي عن الداعم، يعني أيضاً أنه لا يمكن أن يستهدف مكاناً لا يريد له الداعم أن يقصده).

تتعدد الفصائل على نحو مدروس، وتمتنع من الوحدة على نحو مدروس أيضاً، إذ لا يمكن لفصيل أن يشب عن طوق الداعم، أيضاً، وهذا هو الأهم: لا يمكن له أن يحقق نصراً منفرداً.

أما الأخطر: فإن الولايات المتحدة تحديداً تقف بالمرصاد أمام تحقيق أي نصر منفرداً أو غير منفرد، وتعمل على الإبقاء على الحالة "التحريرية" أو "النضالية" أو "الجهادية" تراوح أماكنها، لا تنتصر ولا تنهزء إلى أجل.

وسط هذا التعدد، يأتي الحصان الرابع من الخلف: فصيل دموي مخترق حتى النخاع، يترك له الباب مشرعاً لـ"يغم" أسلحة متطرفة نسبياً عن لداته، ويعطي له نصر بارد تلو آخر، ليجتذب الشباب الغض المفعم بعشق "الجهاد"، ولا يأس أيضاً أن يكون هذا الفصيل هو "الأكثر وضوحاً" في منهجيته؛ فلا يقبل أنصاف الحلول، ويعلن مطالبه الواضحة الجريئة" في زداد السذاج له انجذاباً.. (منذ أتاتورك، والغرب يمنح عملاً انتصارات دعائية تمكّنهم من تنفيذ أجندها لاحقاً، وهو لا ينفك عن ممارسة هذه السياسة حتى الآن).

أحد الشروط البارزة التي يهمس بها في أذن القادة: "لا تتحالف مع هذا الفصيل أو ذاك" .. تمضي الحروب شيئاً فشيئاً فكلما طالت أمكّن للرعاية إحكام ألجمتهم على عنق الفصائل، ومن ثم أمكّن للقوى الدولية أن تحكم أكثر عبر الرعاية، ثم تتعدد السيناريوهات: إما بالمشاركة بحكم جديد قد جرد من كل معاني الاستقلال والهوية (كالحالة الأفغانية) أو الاستمرار بالاحتلال (كالحالة الليبية) أو الانهيار والانزواء (كالحالة العراقية)..

حين يهمس الرعاية؛ فإنهم سيجدون غالباً آذاناً تصفعي لهم، ليس تحت رحى الضغوط وحدها، بل أيضاً لأن ثمة أسباباً داخلية تغذي هذا التوجه. إنه ضعف التربية، والأنا التي تنمو لدى بعض قادة قد غيرتهم نهايات الحرب عن نصاعة نوايا بداياتها.. وقد ينبرى قادة راضفين مثل هذا الابتزاز؛ فالحال بعد الاختراق يسير، أن يغيبوا كما غابت "قادة الأحرار"، أو ينهكوا عبر فصائل مدجنة في معارك طاحنة جانبية تحرفهم عن جادة مسارهم غصباً.. أو يتم عزلهم بمسار سياسي ثالث.

والإخلاص عزيز، لكنه ليس خيالاً، ولهذا؛ فإن ما يرسم من سيناريوهات قد يتحقق جزئياً لكنه مع هذا سيصدم يوماً ما لا محالة، وضد إرادة من الخبائء بقول سيد البشر صلى الله عليه وسلم: "لَا يَزَالُ مِنْ أُمَّةٍ قَائِمٌ بِأَمْرِ اللَّهِ لَا يَضُرُّهُمْ مِنْ خَذْلِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيهِمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ" ، قال معاذ: وهم بالشام.

المسلم

المصادر: